الدكتور عدنان الخطيب

(١٣٣٢ - ١٤١٦ هـ)

(١٩١٤ - ١٩٩٥ م)

الدكتور شاكر الفحام

كان الدكتور عدنان الخطيب، رحمه الله وأسبل عليه سحائب رضوانه، ابنَ المجمع البارّ، أحبه وتردّد عليه منذ شبابه، وتابع أعماله، وشارك في بعضها. وقد ضمَّ ثَبَتُ محاضرات المجمع عناوين أربع محاضرات له في مجال القانون ألقاها في سنوات: ١٩٤٣، ١٩٤٤، ١٩٤٦[١]، كما ضمت مجلة المجمع أول مشاركة له على صفحاتها عام ١٩٤٩م بمقالته: النهضة العربية في العصر الحديث[٢]. وفي هذا الدليلُ البيّنُ على تعلق الدكتور الخطيب بالمجمع، ومتابعته لمسيرته، وإيمانه بمراميه وأهدافه، وصلتِه بأعضائه الأوائل حماةِ العربية، الرافعين بناءها السامق، وعلى رأسهم الأستاذُ محمد كرد علي مؤسس المجمع. لقد رأى فيه المثل الأعلى الذي طالما رنا إليه، فأكبَّ على كتبه، وعدّ نفسه من تلامذته، وحين ألّف كتابه: «لغة القانون في الدول العربية»[٣] قال في إهدائه: «الى الأستاذ الجليل محمد كرد علي، رئيس المجمع العلمي العربي، إجلالاً وتقديراً»، تعبيراً عما يكنه لرئيس المجمع من

(١) تاريخ المجمع العلمي العربي لأحمد الفتيح: ٦٦، ٦٨، ٧٠، ٧٣.

(٢) مجلة المجمع، مج ٢٤ (١٩٤٩م): ٤٧٠ - ٤٧٩، ٦١٢ - ٦٣٦.

(٣) صدرت طبعته الثانية بدمشق عام ١٩٥٢م.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التوقير لمكانته، والإعجاب بعلمه، والإكبار لفضله. وزادته الأيام اعجاباً به، فافتنَّ من بعدُ في الترجمة له، والإشادة به، وإظهار مزاياه وفضائله. ومن النعوت التي أضفاها عليه: «الرائد المجمعي الأول في الوطن العربي».

ولما انضمّ الدكتور الخطيب الى مُجمع الخالدين في عام ١٩٦٠م (٦/١٠/١٩٦٠م)[٤] أصبح المجمعُ همَّه ووكْدَه، أولاه عنايته، ووجّه اليه جهده، ولقد عبّر التعبير الحلو الشائق عما كان يحسُّه نحوه في الكلمة التي ألقاها في حفل استقباله. قال: «فاذا تماجدت دمشقُ كان هذا المجمعُ العظيمُ من مفاخرها الخالدةِ على الدهر، الباقيةِ بقاءَ العربية... إني مانظرت الى هذا الصرح الشامخ من صروح العربية في نهضتها الحديثة إلا حَنيتُ الرأسَ إجلالاً لعظمته، وإكباراً لجهود بُناته الأبطال، حتى إذا مادعوتموني الى هذا اليوم المشهود أخذتني الهيبة من الوقوف أمامكم، وتملكتني رهبةُ الانضمام الى صفوفكم، رهبةٌ يشعر بها من يصَّعَّدُ في السماء»[٥].

أمضى الأستاذ الخطيب في رحاب مجمع الخالدين خمساً وثلاثين سنة، عمل فيها دائباً دون كلال، ماتأخر عن بذل، وماتوقف عن عطاء. ولقد قضى يومه الأخير (يوم الأحد ١٤١٦/٤/٢٩هـ - ١٩٩٥/٩/٢٤م) بيننا في المجمع كعادته في المواظبة على الحضور كل يوم، والمشاركة في أعمال المجمع، وعاد ظهراً الى منزله. ولم يَدُرْ في خَلَد أحدٍ منا أنه الفراق الأخير، وأن المنية ستفجعنا بعد ساعات بفقيدنا الغالي، فتختطفه دون إنذار أو إشارة.

لقد كانت الفجيعةُ فيه كبيرة، جلَّلت النفوسَ بالحزن والأسى، وكانت الخسارةُ بفقده فادحة، ملأت القلوب حسرةً وأسفاً. وفارقَنا، رحمه الله، أشدَّ ماكان تصميماً وعزماً على أن ينجز ماكان عقد عليه النية من

(٤) مجلة المجمع، مج ٣٦ (١٩٦١م) ١: ١٥١.

(٥) مجلة المجمع، مج ٣٦ (١٩٦١م) ٢: ٣٣٢.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استكمالٍ لموضوعات سابقة كان قد بدأها، واستئنافٍ لموضوعات تجمعت لديه مادتُها، ليسطر بذلك خلاصة ماانتهى اليه في حياة حافلة بالدرس والاطلاع والعطاء

كان، رحمه الله، من أوعية العلم، كما يقول علماؤنا الأقدمون، وقد تضافرت الأسباب والدواعي التي هيأت له أن تتنوع معارفه ويتسع مداها .

فقد نشأ في بيت علم وفضل، فأَلِف أن يحضر مجالس العلماء في منزل والده(٦)، يستمع إليهم، ويعي مايعي من أقوالهم وأحاديثهم، وأسلمه والده إلى الجلّة من علماء دمشق، يأخذ عنهم علوم الدين واللغة، فتفتحت نفسه على حب العربية، وملأته الرغبةُ في دراستها ومطالعة كتبها. ثم كان للحركة الوطنية التي كانت تنافح المستعمر الغاصب آنذاك أثرُها الواضح في تأجيج حماسته للعربية، إذ رأى في التشبث بها والحفاظ عليها وجهاً من وجوه الدفاع عن الهوية العربية ومقارعة المستعمر .

* * *

اختار الدكتور الخطيب بعد دراسته الثانوية الالتحاق بكلية الحقوق ببغداد، فنال إجازتها سنة ١٩٤٢م، ثم حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة باريس سنة ١٩٤٧م.

ومضى يخطُّ طريقه في هذين الاتجاهين: الحقوق، والدراسات العربية، وقد أُوتي فيهما نصيباً وافياً .

لقد انتسب الى سلك القضاء، وتقلّب في المناصب القضائية المختلفة ليكون آخر ماتولاه منصب رئيس مجلس الدولة (١٩٦٩ – ١٩٧٤م).

وترك في الدراسات القانونية مؤلفات هامة، ضمَّنها عصارةَ مطالعاته الطويلة، وخلاصةَ خبرته التي اكتسبها في حياته الوظيفية، وفي التدريس في

(٦) كان والده عبد القادر الخطيب خطيبَ الجامع الأموي. له ترجمة في كتاب: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري ١: ٤٦٠ – ٤٦٤.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كليتي الشريعة والحقوق بجامعة دمشق، وفي معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة.

وتجدُ له إلى جانب ذلك المقالات القيمة التي نشرها في المجلات، عالج في طائفة منها مباحث لها شأنها في القانون، وتناول في أخرى جملة من الكتب الحقوقية معرّفاً، ناقداً.

وقد عُرف الأستاذ الخطيب في حياته القضائية الطويلة بالنزاهة في المسلك، والتقصي في تحري الحق والإنصاف، والاجتهاد في الرأي، يستمسك بالعروة الوثقى، شعارُه كلمةُ الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اليمين والشمال مضلة، والوسطى الجادّة»(٧). فكانت سيرتُه عبقَ المسك، نقاءً وطيبا.

إن هذا الجانب المشرق من حياة الدكتور الخطيب بشقيه العلمي والمسلكي ليستأهل الوقفة المتأنية، والدراسة المدققة.

* * *

لقد بيّنتُ آنفاً أن الفقيد قد أحبّ العربية حباً ملك عليه نفسه، فأقبل عليها إقبال مشوق، يتملى تراثها ونفائسها، ثم جال في ميادينها، وأشرع قلمه لتبيان خصائصها، والكشفِ عن أسرارها، وإصلاحِ مابدا له من أغلاط وقع فيها الباحثون، والتأليفِ في موضوعات تضيف جديداً أو تنير غامضاً.

تناولت كتب الفقيد ومقالاته موضوعات شتى. ومن أبرز مؤلفاته:

كتابه: المعجم العربي بين الماضي والحاضر(٨)، وكتابه: المعجم العربي ونظرات في المعجم الوسيط(٩)، وكتابه: لغة القانون في الدول العربية، وله المقالات الكثيرة في مباحث لغوية مختلفة، وفي التعريف بالكتب ونقدها،

(٧) البيان والتبيين للجاحظ ٢: ٥٠.

(٨) صدر عن معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٦٦ – ١٩٦٧م).

(٩) طبع المجمع العلمي العربي بدمشق – ١٩٦٥م.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ينسرب فيها جميعاً تلك الروح الصافية التي أحبت العروبة والعربية، وأشادت بالنهضة ورجالاتها.

كان رحمه الله، يردّد مع أستاذه محمد كرد علي نصيحة الشيخ طاهر الجزائري: «اذكروا مَنْ عندكم من الرجال.... ودوّنوا أسماءهم في جريدة لئلا تنسَوْهم، ونوّهوا بهم عند كل سانحة، واحرصوا عليهم حرصكم على أعز عزيز....»(١٠)

واستجابة لاعجابه الشديد بالشيخ طاهر الجزائري أحد رجال النهضة والاصلاح البارزين في الشام فقد ألَّف كتابه: الشيخ طاهر الجزائري(١١)، كشف فيه عن أعمال هذا المصلح الفذّ الذي كان نبراساً يضيء في ليل مظلم، وبيَّن آثاره العميقة في نفوس مريديه وطلابه، فاقتدوا به، وساروا على نهجه، دفاعاً عن الهوية العربية، وتأصيلاً لها، ودعوةً إلى الاصلاح والنهوض حتى تستعيد الأمة العربية مكانتها السامية. يقول الأستاذ محمد كرد علي في مطلع كتابه: «كنوز الأجداد» منوهاً به، مهدياً كتابه اليه، اعترافاً بفضله وتقديراً لعمله: «الى روح من أشرب قلبي حب العرب، وهداني الى البحث في كتبهم، صدر الحكماء، سيدي وأُستاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري، أُهدي كتابي: كنوز الأجداد»(١٢).

أما سليم الجزائري ابنُ أخي الشيخ طاهر، الذي نشأ في حجره، وتغذَّى بأفكاره وآرائه، فلم يتردد أن ينصب نفسه داعية لبعث الأمة العربية، وإحياء مجدها الغابر، وجادَ بنفسه (والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود) لتحيا

(١٠) المذكرات لمحمد كرد علي ١: ٢٧٤.

(١١) صدر عن معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٧١م).

(١٢) كنوز الأجداد لمحمد كرد علي (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق – ١٩٥٠م)، الشيخ طاهر الجزائري: ٣٠.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أمته، فكان أحد الشهداء البررة الذين فاضت أرواحهم في السادس من أيار عام ١٩١٦م في ساحة الشهداء ببيروت.

وإنك لتلمح في كتب الفقيد ومقالاته تذكيراً بالنهضة العربية ورجالاتها، وإنما هي الدعوة للاقتداء بهم، ومتابعة طريقهم ليشرق فجر العروبة الصادق، وتتبوأ الأمة العربية منزلتها الرفيعة بين الأمم.

وتلاقت في نفس الفقيد خصالٌ حببت اليه الحديثَ عن المجمع والمجمعيين، يأتي في مقدمتها حبُّه للعربية رمز هويتنا، ومستودع ذخائرنا الفكرية والثقافية، وحرصُه على تخليد الرجال المصلحين الذين قدّموا لأمتهم خير ماعندهم، ووفاؤه لاخوانه الذين ساروا في الدرب الذي آثر أن يسير فيه، وعملوا مابوسعهم لتظلَّ العربيةُ المبينةُ لغةَ العصر، تلبي مايراد منها، وتستجيب لمتطلبات الحياة الجديدة.

وانه ليبهرك هذا القدر من تراجم الرجال المجمعيين الذين صورتهم ريشةُ الفقيد الذي رُزق الموهبة، فاذا هو ينفذ بنظراته الثاقبة الى الصفات والسجايا الأصيلة لمن يتحدث عنه، وتسعفه سعة الاطلاع فاذا هو يستقصي أحوال المترجم له وأعماله، لايكاد يغادر منها شيئاً .

ترجم للأعضاء المؤسسين، ومضى على سَنَنه يترجم لمن فقدنا من المجمعيين. واني لآمل أن تجمع هذه التراجم التي ترسم صورة حية لهذه المرحلة الهامة من حياتنا اللغوية والثقافية منذ مطلع القرن العشرين. هذا ولا يفوتني أن أشير الى أن جُلَّ هذه التراجم قد نشر على صفحات مجلة المجمع.

كان الفقيد، رحمه الله، طموحاً، ذا نفسٍ تواقة الى الكمال. أراد أن يتحدث عن مجمع اللغة العربية بدمشق في خمسين عاماً، فأعدّ العدة، ووضع الخطة ليترجم لخمسة وأربعين عضواً من أعضاء المجمع، وليلحق بكتابه ثبتاً بأسماء أعضاء المجمع المراسلين،تتلوه مجموعةُ القوانين والأنظ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المتعلقة بالمجمع، ومسردٌ يضمُّ مطبوعات المجمع في خمسين عاماً.

ولكن الشواغل المتزاحمة لم تسمح له إلا بتسطير القسم الأول من الكتاب الذي تناول فيه سِيرَ ثمانية من الأعضاء هم الأعضاء المؤسسون(١٣)، ولم يسعفه الوقت ليكمل مابدأ، وكان هو الأقدر على صُنْع ذلك لصلته المتينة بالمجمع، وعنايته البالغة بضم النصوص والوثائق الخاصة بالمترجمين وتنسيقها لتكون دائماً بين يديه، تُلبِّيه في عمله.

ولعل في هذا تفسير مانقع عليه أحياناً في آثاره من وعده بأشياء لم نرها. فقد ألقى كلمة في الاحتفاء بالذكرى المئوية لولادة الأستاذ محمد كرد علي تناول فيها كتابه: المذكرات. وقد اجتزأ بالمقدمة لضيق الوقت، ووعد بنشر بحثه كاملاً في كتاب مستقل(١٤). وكنا نودّ لو ظهر الكتاب، لأن المذكرات قد أثارت ضجة كبيرة عند ظهورها، واختلف الناس في تقديرها وتقويمها أشد الاختلاف. وكان الدكتور الخطيب من أقدر الناس على بيان الدواعي والأسباب التي تفسر كثيراً من مواقف الأستاذ محمد كرد علي في مذكراته.

وآخر ماأوردُه في هذا الصدد أن الفقيد، رحمه الله، عزم على أن يؤلف كتاباً يتحدث فيه عن مجمع اللغة العربية في خمسة وسبعين عاماً، ليقدمه في الحفل التذكاري الذي يقيمه المجمع في (٢٦ – ١٩٩٥/١١/٢٩م) بمناسبة مرور خمسة وسبعين عاماً على إنشائه.

وقد ذكر لنا في جلسة المجمع الأخيرة أنه أنجز مؤلفه، وهو في سبيل تقديمه للطباعة، وفاجأته المنية، وبحثنا عن مخطوطة الكتاب فلم نقع لها على أثر. وانا لنأمل أن تكشف لنا قادمات الأيام ماخفي علينا من أمرها.

(١٣) مجمع اللغة العربية في خمسين عاماً (مطبوعات المجمع ١٩٦٩م): ١٥ – ١٦.

(١٤) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٥٢ (١٩٧٧م) ١: ٩٧، هـ ١.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن الحديث عن الأستاذ الخطيب المجمعي حديث شائق ذو شجون. وإن سيرته المجمعية وآثاره ومنجزاته لجديرةٌ أن تجذب الدارسين ليُمضوا في رياضها الوقت الطيب، باحثين منقِّبين، وسيجنون خير الجنى في تجوالهم وبحثهم، ويقدّمون الكثير المفيد الذي يُغني المكتبة العربية، ويضيف اليها الجديد.

* * *

وبعد، فاني لأستجيز أن أختم حديثي قبل الإشارة العابرة الى نشاط الفقيد في مجمع القاهرة.

فقد كان، رحمه الله، شديد الحرص على حضور المؤتمر السنوي الذي يعقده مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمشاركةِ في بحث من بحوثه. وكان يقع عليه الاختيار في أغلب الأحوال ليلقي كلمة الوفود في المؤتمر، كما كان شديد العناية بنشر وقائع المؤتمرات، يلخص فيها مضمون البحوث والمناقشات بدقة متناهية.

وكان الدكتور الخطيب من شهود الجلسة التي تمَّ فيها تأسيس اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية عام ١٩٧١م (في ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٩١هـ الموافق ١٣ ايار ١٩٧١م)[١٥]، وانتُخب أميناً عاماً مساعداً للاتحاد، فحاز ثقة زملائه، وظل في منصبه طَوال حياته.

رحم الله الفقيد الرحمة الواسعة، وأنزله منازل الأبرار المتقين:

رحم الله صاحبي وخديني ... رحمة تغتدي وأخرى تروحُ

لازال مسكٌ وريحانٌ له أَرَجٌ ... على صداك بصافي اللون سلسالِ

يسقي صداك ومُمْساه ومُصْبَحَهُ ... رِفْهاً ورَمْسُك محفوفٌ بأظلالِ

---

(١٥) اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في خمس عشرة سنة: ١.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net